حنين مسلتين

NOSTALGIES D'OBÉLISQUES

للشاعر الفرنسي تيوفيل جوتييه

THÉOPHILE GOUTIER

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

بعد أن تغادر حدائق التويلرى المغروسة أمام متحف اللوفر ترى ميدان الكونكورد أجمل ميادين باريس . وفى وسط هذا الميدان الفسيح الحى تنهض إحدى المسلات المصرية ، وقد أقيم قريباً منها على الجانبين فوارتان . وإذا وقفت أمام هذه المسلة رأيت عن يمينك المعبد La madeleine وعن يسارك مجلس نواب فرنسا مطلاً على نهر السين ، وأمامك طريقا يصل إلى غابة بولونيا

منذ زهاء ثلاثة وثلاثين قرناً أنشأ هذه المسلة وأختها إمبراطور مصر رمسيس الثانى ، حيث أقامهما عند باب معبد الأقصر ، وقد ظلت المسلتان معاً واقفتين أمام هذا المعبد الضخم حتى القرن الماضى حينما أهدى محمد على الكبير إحداهما إلى ملك فرنسا لويس فيليب ، وهي القائمة الآن بميدان الكونكورد ، وأما المسلة الثانية فظلت حيث أنشئت وحيدة

أنشأ الشاعر الفرنسى تيوفيل جوتييه قصيدتين إحداهما على لسان المسلة الغريبة بباريس ، والأخرى على لسان المسلة المقيمة بالأقصر . وتيوفيل جوتييه من أدباء القرن التاسع عشر ، ولد فى أوائله وبدأ حياته رساماً ، ثم ترك ريشة المصور إلى قلم الأديب ؛ غير أنه ظل فى الأدب رساماً كذلك ؛ وهو يرى أن من حق الأدب أن ينافس الفنون الأخرى كالرسم والتصوير والحفر ، فيما تتناوله من الموضوعات ، وقد حقق فكرته فى ديوانه (Emaux et Camées) فموضوعاته تصوير لما تراه العين قبل أن تكون تصويراً للاحساس والشعور ؛ فتراه يصور لك مثلاً تمثالاً فى متحف ، أو آنية مزخرفة ، أو باريس تغطيها الثلوج ، إلى غير ذلك من صور . وهو الذى أذاع نظرية الفن للفن ؛ فأهم شىء عنده هو الجمال الفنى والأسلوب ، أما الفكرة والأخلاق فى المرتبة الثانية . وهو ممن حلّ الشعر من قيود الشخصية ، وكان قدوة لغيره فى استخدام الأساليب الدقيقة المصورة . ولعلنا نوفق يوماً إلى دراسة مذهبه فى الفن ، ونقد هذا المذهب

ولم يقتصر تيوفيل جوتييه على قرض الشعر ، بل له قصص قصيرة ، وروايات مطولة ، منها رواية كتبها عن مصر ، تسمى قصة المومياء ، وصف فيها مصر القديمة ، حياتها ومجدها . وقصيدتا المسلتين بديوانه الذى تحدثت عنه ، وهأنذا أنقلهما إلى اللغة العربية ، محافظاً كل المحافظة على ما قصد إليه الشاعر من صور وأفكار

١ — مسلة باريس

فى هذا الميدان أتضجر ، أنا المسلة المبعدة عن أختها . الجد والصقيع والرذاذ والمطر ، بردت جنبي الذى علاه الصدأ

وفتى المدينة العتيقة التى كانت محمرة فى أتون سماء ذات لهب[1]

ارتدت الشحوب من حنينها إلى الوطن فى جو لا يزرق أبداً

لِمَ لا أقف الآن قريبة من أختى ذات اللون الوردى ، أمام التماثيل الضخمة العابسة ، وأعمدة بيبان الأقصر ، غامسة فى الزرقة الدائمة رأسى الهرمى القرمزى ، وكاتبة

(١) يقصد سماء مصر

— الواقع أننى مسرور جداً ...

— أمر عجب ! !

— حقاً ، إننى مسرور جداً ، لأنها حالة أنت ذاتك مسرورة منها ...

— عجباً ... ومن أدراك بأننى مسرورة و ... جداً ؟

— أنت ...

— أنا ... !

— نعم أنت ...

— سبحان الله ... وكيف ... ؟

— بنظراتك ...

— نظراتى ! !

— أظنك ستقولين إنها خطة أخرى ...

... ...

— ولكن هل تثق أنت بنظراتى ؟

— تقتك أنت بنظراتى

— ! ! ...

— أنظرى فى عينىّ . ألا ترين عينيك فيهما ؟ !

— ! ! ...

— إنها وحدة الوجود ...

— وهى لذة الوجود ...

راشد رستم

خُطّى الشمس بظلّى فوق الرمال .

رمسيس ! كاد الخلود يوماً ما يتصدع حين تدحرج جسمى الجميل مقتلعاً كعود من عشب ؛ باريس تتخذه لعبته .

الديدبان[1] الصخرى حارس الآثار الضخمة ، يقف بين معبد[2] كاذب قديم ، وبين مجلس النواب .

فوق مقصلة[3] لويس السادس عشر ، أقيم صخر نسى منزاه ، وفيه مرّى الذى نسى منذ خمسة آلاف عام .

العصافير الطليقة تدنس رأسى الذى كان يطير مسرعاً حوله اللقلق الوردى ، والصقر ذو الريش الأبيض ، والمناسر الذهبية .

نهر السين الأسود ، مأوى مياه الطرقات ، النهر القذر ، المكون من صغار الجداول ، دنّس قدمى التى كان يقبّلها عند فيضانه النيل أبو الأنهار .

النيل العملاق ، ذو اللحية البيضاء ، المحفوف بنبات اللوتس والخيزران ، والذى يصب متبعُه المتحدر تماسيح بدل صغار الأسماك

المجلات الذهبية المطقمة بأصداف كالنجوم ، مجلات الفراعنة العظام الأقدمين ، كانت تمرّ بجانبى ، أنا المجروحة الكبرياء ، برؤية عربة الكراء ، مقلة آخر ملوك فرنسا[4]

قديماً أمام حجرى العتيق ، كان الكهنة الأبرار ، وقلانسهم على جباههم ، يتمشون فى المحراب المقدّس الخفىّ ذى الرّموز المصوّرة المذهبة .

أما اليوم فأنا عمود ليست له قداسة الدين ، أقيم بين فوارتين ، وتمر بى بنت الهوى صريعة فى مركبتها .

أرى طول العام مواكب الموسرين ، وأتباع صولون[5] ذاهبين إلى دار النيابة ، والفجرة منطلقين إلى غابة بولونيا .

أفّ ! فى مائة عام أىّ هيا كل عظمية قبيحة ، سيصير إليها هذا الشعب الماجن المجنون الذى يرقد من غير لفائف ، فى تاووس يغلقه مسمار !

ليس له تحت الأرض مقابر فى مأمن من الفساد ، تلك المراقد التى ينام فيها الموتى جيلاً بعد جيل .

أيتها الأرض المقدسة ، أرض الهيروغليف ، وأرض الأسرار الكهنوتية ، حيث آباء الهول تشحذ مخالبها على زوايا قواعد التماثيل

وحيث النواويس ترن تحت الأقدام ، وحيث العقبان تبنى عشاشها . إننى أبكيك يا مصرى القديمة بدموع من جرانيت .

(١) تقصد نفسها (٢) معبد مادلين (٣) أقيمت المسلة فى المكان الذى كانت مقصلة لويس السادس عشر قد أقيمت فيه .
(٤) لويس فيليب (٥) يقصد النواب .

٢ — مسلة الأقصر

هأنذى أسهر حارساً وحيداً لهذا القصر الكبير الخرب فى وحدة أبدية وأمام اللانهاية ، تنشر الصحراء تحت الشمس المحرقة ملاءتها الصفراء إلى أفق لا يحده شيء ، أفق مجدب صامت لا نهاية له

وفوق الأرض العارية تبدو السماء — وهى صحراء أخرى زرقاء - نقية تامة النقاء لا تسبح فيها قطعة واحدة من السحاب

النيل ذو المياه الكدرة التى ينعكس الضوء فوق أديمها ، كأنما هو قشرة رصاصية — يلمع تحت أضواء عمودية شاحبة ، مكسر الصفحة بفرس النهر

والتماسيح الشرهة إلى الاقتناص ، تكاد تنضج فى جلودها فوق الرمال الملتهبة ، تغرب فى الضحك ، وتخالها ترسل الزفرات

واللقلق : منقاره إلى حوصلته ، ساكن فوق قدمه النحيلة يقرأ على قاعدة بعض الأعمدة الألقاب المقدسة للمعبود « توت »

والضبع يضحك ، وابن آوى يموء ، والصقر كأنه فاصلة سوداء فى صفحة السماء النقية ـ جائع يصرصر ، راسماً دوائر فى الهواء

ولكن ضوضاء هذا القفر يحجبها تثاؤب تماثيل أبى الهول متعبة من احتفاظها السرمدى بالسكون

صخر خلقته الأشعة البيضاء ، تنعكس فوق الرمال ، والشمس المتلألئة على الدوام ، وأى صخر يشبه ما يبعثه نور الشرق الحزين !

هنا الهواء لا يجفّف يوماً دمعة فى عين السماء الجامدة ، والزمن متعباً يتكىء على هذه القصور الصامتة

ليس عندى ما يغيّر وجه السرمدية ، فصر فى هذا العالم الذى يتغير فيه كل شيء ، تتربّع فوق عرش الثبوت

عندما يساورنى الضجر ، آخذ الفلاحين والموميات التى عاصرت رمسيس رفقاء وأصدقاء

هأنذى أرى عموداً مائلاً ، وتمثالاً ضخماً بلا وجه ، وزوارق ذات قلاع بيضاء صاعدة هابطة فى النيل

كم أتمنى أن لو كنت كأختى ، قد نقلت إلى باريس العظيمة وغرست هناك فى ميدان ، قريبة منها لأتسلى !

إنها ترى هناك شعباً حيًّا واقفاً يتأمل نقوشها وخطوطها المقدسة التى يسبح الفكر لدى قراءتها فى عالم الأحلام ...

الفوّارتان المقامتان بجانبها تقذفان رذاذهما الملوّن بألوان قوس قزح على غبار صخرها القرمزى الذى عاد إليه الشباب ...

لقد نحتت مثلى من الصخور الوردية بأسوان ، غير أننى بقيت فى مكانى القديم . إنها حية ... أما أنا ... فقد مت !!

(حلوان) أحمد أحمد بدوى